أصول القراءات الصوتية والصرفية في المعهود من العامية الجزائرية

Origins of phonetic and morphological readings in the common Algerian vernacular

الدكتور: زكرياء بسباسي

مركز البحث العلمي والتقني في علم الإنسان الاجتماعي والثقافي ـ وهران (الجزائر)
ZAKARIABESBACI10@GMAIL.COM

تاريخ الإيداع: 2019/11/04 تاريخ القبول: 2020/04/12

ملخص:

تقف هذه الدراسة اللغوية مع العامية الجزائرية باعتبارها واقعا لغويا حيا يمثل انحرافا عن العربية الفصحى وتطورا في خصائصها وأساليبها؛ إذ إنها تعد إحدى فروع العربية الفصحى المعاصرة، وسنحاول رصد هذا الانحراف والتطور بربط ظواهره وصوره بجذورها وإعادتها إلى إحدى أصولها؛ متخيرين في ذلك أصول القراءات القرآنية كونها مصدرا خدم اللغة العربية في التقعيد لها والحفاظ على مقوماتها، فعرضت بعض المعهود من العامية الجزائرية على ضوء بيان علاقة أصول القراءات القرآنية المتواترة بما تلفظه العامة في الجزائر وأثرها فيها؛ قصد إزالة الفجوة بين المستويين الفصيح والعامي والتقريب بينهما، مع التعرف على الطريق الذي سلكته هذه العامية حتى تطورت من الناحية الصوتية والصرفية عن أصلها الفصيح، والوقوف على أوجه الفرق في الاستعمال من جهة التوسع .

الكلمات المفتاحية: القراءات؛ العامية؛ الأصول؛ الصرف؛ الصوت؛ الفصحى

Abstract:

This linguistic study examines the Algerian vernacular for being a living linguistic phenomenon that represents a deviation from the classical Arabic and an evolution in its characteristics and methods as it is considered to be one of its branches. Opting for the origins of the Quranic readings as a source that served Arabic in establishing its rules and preserving its components, we will try to monitor this deviation and development by linking its phenomena and images with its roots .

This study will also present few examples of the common Algerian vernacular vocabulary in order to highlight the relationship between the origins of recitations of Quran and the Algerian vernacular in its impact on them; in order to remove the gap between the eloquent and colloquial levels, to bring them closer together, to identify the path taken by this colloquial until it evolved from Phonetics and morphology from its eloquent origin, and to sum up the differences in use in terms of flexibility.
key words: readings; vernacular; origins; Morphology; Phonetics; classical Arabic.

مقدمة:

يتحدث أغلب سكان الجزائر باللغة المعروفة باسم اللهجة العربية الجزائرية، وهي لغة التواصل المشترك الأساسية بين مختلف الفئات الاجتماعية في الجزائر، ومعظم أهل الجزائر يمكنهم فهم مدلولات مصطلحاتها وتعابيرها، ويسميها المتكلمون بها بالدارجة، وهي عامية غالبا ما تأخذ من الفصيح العربي، ومن الدخيل والمقترَض من لغات من احتك بهم الجزائريون في المجال الاجتماعي والسياسي والجغرافي والحضاري عبر التاريخ.

ومما قرره اللغويون أن للقرآن الكريم أثرا كبيرا في حفظ اللغة العربية وتقعيد قواعدها وتأصيلها، وقد كان "للقراءات القرآنية شأن في علوم العربية؛ فقد أثمرت تراثًا غنيًّا، تأتي في مقدمته كتب الاحتجاج، وهي تُعنى ببيان وجه كل قارئ فيما اختاره من قراءة، وأكثر هذه الوجوه لغوية، فكانت مجلى نظرات بارعة في درس العربية من جوانبها كافة: الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، على أن اختلاف القراءات القرآنية ـ وهو أدائي في غالب الأمر ـ جعَل للجوانب الصوتية الكفَّة الراجحة في تلك الكتب"[1].

يقول ابن جني في معرض وصفه للهجات العربية: "اعلم أن العرب تختلف أحوالهم في تلقي الواحد منها لغة غيره، فمنهم من يخف ويسرع قبول ما يسمعه، ومنهم من يستعصم فيقيم على لغته البتة، ومنهم من إذا طال تكرار لغة غيره عليه لصقت به، ووجدت في كلامه"[2]، ولعل الحكمة من اختلاف هذه اللهجات ولغات القبائل حينذاك كان من أجل "التيسير على الأمة الإسلامية؛ فإنها كانت قبائل كثيرة، وكان بينها اختلاف في اللهجات، ونبرات

الأصوات، وطريقة الأداء، وشُهرة بعض الألفاظ في بعض المدلولات، على الرغم أنها كانت تجمعها العروبة"[3].

ورغم أن التطور سنَّة جارية في كل اللغات البشرية، وأن أكثر مظاهره يكون في الدلالات والألفاظ، إلا أن العربية الفصحى ظلت محتفظة ـ بشكل كبير ـ بكل مستوياتها اللغوية، وما نشأ منها من اللهجات العامية يدعونا إلى التساؤل عن أصل هذا المنشأ ومسالكه وتخريجاته، والبحث عما إذا كان للقرآن الكريم حظ في هذه النشأة ونصيب فيها، باعتبار أن الفصيح العربي ـ والقرآن الكريم أفصح كلام وأبينه ـ جزء مهم من رصيد العاميات العربية الحديثة، فهل يمكننا أن نقول: إن القراءات القرآنية تعدّ مصدرا مهمّا لمعرفة لهجات العرب ودراسة ما فيها من ظواهر لغوية مختلفة؟

ومما قرره الدارسون اللغويون أن للغة ـ عامة ـ أصلا تدرج عليه في مفرداتها ومستويات تراكيبها وقواعدها، فقد قال أحمد توفيق المدنيُّ عن علاقة العامية الجزائرية الحديثة بالفصيح من الكلام العربي: "أمَّا اللُّغة العامِّيَّة الدَّارجة، فيجب علينا أن نعيد هنا القول بأنَّ العربيَّة العامِّيَّة الموجودة بشمال إفريقيا عمومًا، وخاصَّةً في الهضاب العليا والصَّحراء الجزائريَّة... هي أفصح لغةٍ عربيَّةٍ عامِّيَّة موجودةٍ على وجه الأرض؛ لأنَّ أغلب عباراتها (نحو 98 في المائة) هي عبارات فصيحة قرآنيَّة...، بل إنّي أستطيع أن أؤكِّد بأنَّ العربيَّة العامِّيَّة في بلادنا هي أفصح كثيرًا وأقرب إلى لغة القرآن من العامِّيَّة الَّتي يتكلَّمونها في اليمن، وحتَّى في كثير من أنحاء الحجاز"[4].

وقد رجح أحمد توفيق المدني ـ أيضا ـ أن تكون العامية الجزائرية أقرب عامية إلى اللغة العربية الفصيحة فقال: "فاللَّهجة العامِّيَّة العربيَّة بالجزائر تعتبر بالنِّسبة إلى اللَّهجات العامِّيَّة الأخرى في البلاد الشَّرقيَّة لغةً فصحى راقيةً، فالعامِّيَّة عندنا هي العربيَّة الَّتي نزل بها القرآن، إنَّما دخل عليها تحريفٌ قليلٌ، لو بذل العلماءُ جهدًا صادقًا لمحقه، لما بقيَ منه شيءٌ، ونحن بذلك أقرب الأمم العربيَّة إلى العربيَّة الفصحى، وهذه ميزةٌ لبلادنا لا يستطيع نزعها أحدٌ"[5].

وفي هذا البحث أحاول جاهدا الوقوف على بقايا أصول القراءات القرآنية في المعهود من العامية الجزائرية ـ خصوصا ـ على بعض من جوانب المستوى الصرفي والصوتي، واقتصاري

على المستويين إنما كان باعتبار كثرة ما بقي من أصول القراءات في تجليات العامية الجزائرية صرفا وصوتا، واطرحت المستوى النحوي لعدم خضوع العاميات الحديثة إلى قواعد النحو والتركيب في اللغة الفصحى.

وقد استقام لي البحثُ في ذلك خلالَ منهجٍ وصفيٍّ قائم على التخير بالعرض والتمثيل ـ نظرا إلى كثرة الأمثلة في العامية الجزائرية ـ؛ فوقفت بواسطته أمام الظّواهر الصوتية والصرفية في العامية الجزائرية؛ حيث أعمد إلى البحث عن علاقة تلك الظواهر بأصول القراءات العشر المتواترة معزوة إلى الطرق التي وردت في متني الشاطبية في القراءات السبع وطيبة النشر في القراءات العشر، مع التمثيل لذلك، ويتم كل ذلك من خلال الاعتماد على المصادر التي نقلت تلك الأصول مع اتباع طريقة القراء في اصطلاحاتهم، إضافة إلى أمهات المعاجم وكتب علم اللهجات التي تعرضت لهذا الجانب بالدرس والتأليف، وقد جعلت خطته كالآتي:

تمهيد: وفيه تعريف القراءات القرآنية، ومصطلح العامية .

المطلب الأول: أحكام الإدغام

المطلب الثاني: أحكام الهمز

المطلب الثالث: أحكام متفرقة

. خاتمة: سلطت فيها الضوء على أبرز ما جاء في البحث، مع تلخيص أهم النتائج.

تمهيد:

تعريف القراءات القرآنية:

عرفه ابن الجزري بقوله: "القراءات علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة"[6].

وصاغ القسطلاني تعريفا لفن القراءات فقال: "هو علم يعرف منه اتفاق الناقلين لكتب الله، واختلافهم في الحذف والإثبات، والتحريك والإسكان، والفصل والاتصال، وغير ذلك من هيئة النطق والإبدال من حيث السماع"[7]، أي: إن مدار هذا العلم قائم على كيفية النطق بالكلمات القرآنية.

تعريف العامية: عرفها علي عبد الواحد وافي بأنها طريقة الحديث التي يستخدمها السواد الأعظم من الناس وتجري بها كافة تعاملاتهم الكلامية، وهي عادة لغوية في بيئة خاصة تكون هذه العادة صوتية في غالب الأحيان[8].

وحسب المعجم الوسيط: "فالعامي المنسوب إلى العامة، ومن الكلام ما نطق به العامة على غير سنن الكلام العربي"، وكذلك: "العامية: لغة العامة، وهي خلاف الفصحى"[9]، أي: أنها تعتمد المنطوق المتداول بين مجموعة من أفراد المجتمع، وغالبا ما تكون اللغة الفصحى مكونا أساسيا لها؛ إضافة إلى بعض الدخيل من لغات أخرى احتكت بها أو جاورتها، وكذلك ما نشأ من تحريف بعض ألفاظ اللغة الفصحى، وتمتاز بتحررها من التقييدات اللغوية والأحكام الإعرابية، ويعيبها عدم استيعابها ما لا يُحصى من المصطلحات العلمية المستحدثة.

المطلب الأول: أحكام الإدغام

الإدغام صناعة: اللفظ بساكن فمتحرك بلا فصل من مخرج واحد...وينقسم إلى كبير: وهو ما كان أول الحرفين في محركا ثم يسكن للإدغام؛ ولذا سمي كبيرا، وصغير: وهو ما كان أولهما ساكنا...وسببه التماثل، وهو الاتحاد ذاتا، والتجانس: وهو الاتفاق في المخرج لا في الصفة، والتقارب: وهو التقارب في المخرج أو الصفة أو فيهما[10].

والذي يدور عليه أمر الإدغام الكبير من القراء هو أبو عمرو البصري نقلا وضبطا وإسنادا[11]، كما نقل حكم الإدغام الصغير أيضا عن جلة من القراء[12].

وهو ظاهرة لغوية صوتية ارتضته العامية الجزائرية في مفرداتها، واستخدمته وفاهت بلفظه بفعل التوارث المبني على المشافهة.

وإذ إن العامية الجزائرية تجنح إلى تسكين أواخر المفردات فإن الإدغام الكبير لا وجود له في العامية الجزائرية ـ فيما أحسب ـ ويكثر الإدغام الصغير في مقابل ذلك؛ لأن صورته أن يدغم ساكن في متحرك، ونمثل لذلك بعبارة:

"قال لك" فإنها تنطق: (قالّك) بلام واحدة مشددة.

أو عبارة: "اعطيني الكتاب باش نقرا" فإنها تنطق (الكتابّاش) بباء واحدة مشددة.

ومثل ذلك إدغام حرفين لعلاقة التجانس بينهما؛ ففي عبارة (طردته) تدغم الدال في التاء إدغاما كاملا مع تشديدها (طرتّه) وهما حرفان متجانسان اتحدا مخرجا واختلفا صفة.

وقد تكون العلاقة بين المدغم والمدغم فيه أيضا علاقة تقارب مثل: عبارة (قال ربي) فإن اللام تدغم في الراء مع تشديدها فتنطق (قارّبي).

وكل ما في الأمثلة السابقة إدغام اضطراري بغرض تقريب الأصوات من بعضها، وما دفع إليه هو تجاور حرفين متماثلين وهما: حرفا اللام والباء، أو حرفين متجانسين وهما: الدال والتاء؛ أو حرفين متقاربين وهما: اللام والراء؛ فالعلاقة الصوتية بين الحرفين هي التماثل أو التجانس أو التقارب، ويمد حرف المد قبل الحرف الأول المدغم قصرا وتوسطا وطولا[13].

ومما تخلت عنه العامية الجزائرية ـ في سياق ما يمكن تسميته الاختيارات الصوتية نظرا لمحدودية العامية ـ في هذا الحكم هو إسقاط المد إشباعا وتوسطا؛ واكتفت بالمد قصرا؛ لأنه لا تقام ذات الحرف إلا به، ويسمى المد الطبيعي.

وقد علل الخليل بن أحمد سبب لجوء المتكلم إلى الإدغام بأنه عندما يخرج الصوتان من موضع واحد، فيثقل عليه أن يرفع لسانه من موضع ثم يعيده إلى ذلك الموضع للصوت الآخر، فلما ثقل عليه ذلك، أراد أن يرفع رفعة واحدة، وذلك رغبة في الوصول بالكلمة إلى درجة من السهولة في النطق مع الخفة فيه"[14]، ففي الإدغام اقتصاد في الجهد العضلي؛ لأن اللسان فيه يعمل من وجه واحد؛ إذ عمله في الحرفين واحد بخلاف الإظهار؛ فإن اللسان فيه ينتقل متصعدا مرة متسفلا مرة أخرى[15].

وقال إبراهيم أنيس: "وقد يحدث الإدغام كثيرا في البيئات البدائية؛ حيث السرعة في نطق الكلمات، ومزجها بعضها ببعض، فلا يعطى الحرف حقه الصوتي من تحقيق أو تجويد في النطق[16]، والمراد من البيئة البدائية هو القبائل العربية في أول عهدها، وليس الأمر كذلك بالنسبة للعامية الجزائرية؛ فلا فرق بين البدو والحضر في حدوث الإدغام اتفاقا في عاميتهم مجاراة للقرآن الكريم في أصول قراءاته؛ فهذه العاميات تنتمي إلى العربية الفصحى، وإنها ليست شكلا مستقلا عنها[17].

المطلب الثاني: أحكام الهمز

شغلت الهمزة حيزا كبيرا من التفكير اللغوي العربي، فقد عد قدماء اللغويين العرب "الهمزة" من الأصوات التي تخرج من أقصى الحلق، وهي صوت مجهور، شديد ومستفل، منفتح ومصمت[18]، وخالفهم المحدثون فعدوها صوتا حنجريا شديدا ومهموسا[19].

ولما كان الهمز يخرج من أقصى الحلق وما يليه من أعلى الصدر مشبها للتّهوع والسّعلة، أوجب على أكثر الناطقين به كلفة ومشقة، فتصرّفت فيه العرب واستعملته على ضربين: محقّقا ومخفّفا، وممّن عدل عن تحقيقه إلى تخفيفه في الأكثر أهل الحجاز؛ فخفّفوه على أربعة أوجه: الأوّل: الإبدال، والتسهيل، والحذف من غير نقل حركة الهمزة إلى ما قبلها، والحذف مع نقل حركته إلى الساكن قبله"[20].

وقد درج القراء في أصول قراءاتهم في باب الهمز على اتباع هذه الأوجه الأربعة ـ التي سبق ذكرها ـ وفق قواعد مطردة تضبط التعامل مع الهمز في القرآن الكريم.

وتعد العامية الجزائرية إحدى العاميات التي يتجنب الناطقون بها استعمال حرف الهمز محققا ـ في الأغلب ـ في مفرداتهم، والتحقيق الوارد عن أئمة القراءة أن يؤتى بالشيء على حقه من غير زيادة فيه ولا نقصان منه[21]، أي: أن تخرج الهمزة بكل صفاتها من مخرجها حيث وقعت في الكلمة، ونجد أن حال الهمز في العامية الجزائرية مطابق تماما لحاله في أصول القراءات القرآنية، وسنعرضها ببيان قواعدها مع التمثيل لها:

أ ـ الإبدال:

وهو أن تجعل مكان الهمزة واواً أو ياء أو ألفاً، وذلك يعتري الهمزة مفردة كانت في الكلمة أو كانتا من كلمتين. والمفردة يمكن أن تكون فاء للكلمة أو عيناً أو لاماً شرط أن تكون ساكنة، أو متحركة حال الوقف عليها عند الإمام حمزة في بعض أوجه الهمز لديه، وقد جاء الإبدال في الهمز المفرد عن بعض القراء العشرة ورواتهم فورد عن ورش والسوسي وأبي جعفر وحمزة في حال الوقف، قال الشاطبي في باب الهمز المفرد:

إذا سكنت فاء من الفعل همزة فورش يريها حرف مد مبدلا

وقال أيضا:

ويبدل للسوسي كلُّ مُسَكَّنٍ من الهمز مدّا غير مجزوم أُهمِلا[22]

وعليه تصير كلمة (المؤمنون) (المومنون)، وكلمة (البأس) (الباس) بإبدال الهمز الساكن ألف مد في المثالين، وهكذا...

ومثل ذلك في العامية الجزائرية مفردات وردت فيها الهمزة متوسطة مثل: (جئت) (الفأس) (الفأر) فإنها تلفظ (جيت) بإبدال الهمزة ياء مدية من جنس حركة الحرف الذي قبلها وهي الكسرة التي على الجيم، ومثلها: (الفاس) و(الفار).

إلا أن الإبدال في العامية الجزائرية أشد توسعا في الاستعمال ـ من حيث القواعد ـ من الإبدال القرائي، أي: أن الإبدال العامي لا يتقيد بحرفية الضوابط التي تحكم الإبدال القرائي؛ وذلك لاختلاف بنية الكلمة في العامية عن بنية الكلمة في القرآن الكريم، ومثال ذلك: كلمة (الجنائز) فالهمزة فيها متوسطة متحركة، وتلفظ في العامية الجزائرية بالياء المحضة (الجنايز)، ومعلوم أن قاعدة إبدال الهمز المفرد لا تتأتى في هذه المفردة لانتفاء شروط الإبدال، إلا أن يكون ضربا من التخفيف قصد السهولة واليسر، بل يتأتى فيها التسهيل على مذهب الإمام حمزة في حال وقفه على الهمز؛ فقد قال ابن الجزري:

إلا متوسطا أتى بعد ألف سهل ومثله فأبدل في الطرف[23]

ونظير هذا التوسع كلمة (أذن)؛ حيث ينطقها العامة في الجزائر (وذن) بإبدال الهمزة واوا وهي في صدر الكلمة، ومما هو مقرر في أصول القراءات أنه لا تسهيل للهمز في بداية الكلمة إلا بواسطة، فقد قال الشاطبي:

ومافيه يلفى واسطا بزوائد دخلن عليه فيه وجهان أعملا[24]

ب ـ الحذف:

وهو درجة من درجات تخفيف الهمز، وهو أن تسقط الهمزة كلية من بنية الكلمة، ويكون ذلك في الهمزات المتوسطة والمتطرفة خاصة، وقد نص عليه القراء في أصول القراءات في باب الهمزتين من كلمتين، وفي باب وقف حمزة وهشام على الهمز، وممن قرأ به من القراء والرواة: قالون والبزي وأبو عمرو وهشام وحمزة، قال الشاطبي في الحرز:

وأسقط الاولى في اتفاقهما معا إذا كانتا من كلمتين فتى العلا

كجا أمرنا من السما إن أوليا أولئك أنواع اتفاق تجملا

وقالون والبزي في الفتح وافقا وفي غيره كاليا وكالواو سهلا [25]

وقال أيضا:

وحرك به ما قبله متسكنا وأسقطه حتى يرجع اللفظ أسهلا[26]

وقد وقع حذف الهمزة كثيرا في العامية الجزائرية، فحذفت الهمزة في آخر الكلمة طلبا للخفة في النطق، مثل: (الماء، السماء، دفء...)، فإنها تنطق (الما، السما، دفا)، سواء وقف على الكلمة أم وصلت بما بعدها، وذلك خلافا لما عليه قواعد حذف الهمز عند الإمام حمزة وهشام فإنه لا يكون إلا حال الوقف.

وكذلك حذفت من الكلمتين معا ـ توسعا قصد طلب التيسير في النطق ـ مثل: عبارة (جاء أحمد) فإنها تنطق (جا حمد) فتم حذف الهمزة الأولى مجاراة للقواعد القرائية المقتضية للحذف، وتم حذف الهمزة الثانية وفق ما درجت عليه العامية، وما اعتاده المتكلم طبيعيا من التخلص من الهمز في بداية الكلمة للاستخفاف ودفع الاستثقال، بل تتوسع العامية أكثر ـ ودون تقيد بقواعد حذف الهمزة في أصول القراءات ـ في حذف الهمزة حتى وإن لم تجتمعا متتابعتين في كلمتين، ونمثل لذلك بعبارة: (إن شاء الله)، فإنها تنطق في العامية الجزائرية (نشا الله)، أي: بحذف همزة (إن) وهمزة الفعل (شاء).

وقد يكون حذف الهمزة مصحوبا بنقل حركة الهمزة إلى ما قبلها مثل: (المرأة) بإسكان الراء وفتح الهمزة، فتنطق في العامية الجزائرية (لمرا) بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى الراء قبلها، و(الأرض) بسكون اللام وانفتاح الهمز؛ فتنطق في العامية (الارض) بإسقاط الهمز ونقل حركته إلى اللام قبله.

وقد تستثنى كلمات من العامية لا يحذف منها الهمز في بدايتها مثل: (أكرم)، (أشرف)، (أنور)؛ لأنها ـ فيما أحسب ـ أول ما استعملت في قاموس العامية إنما استعملت بفصاحتها دون إدخال ما تسلكه العامة في طرائق كلامها وفنون قولها، وما يؤكد ذلك ويعضده حال حذف الهمز في كلمات مثل: (أحمد)، (إبراهيم)، (إسماعيل)؛ لشيوعها استعمالا وثبوتها قاموسا في العامية الجزائرية.

المطلب الثالث: أحكام متفرقة

ـ الفتح والإمالة وبين اللفظين:

والإمالة باب في الصرف، وهي في اللغة: مصدر أمال يميل، وهي العدول على شيء والإقبال عليه[27]، وتنقسم في الاصطلاح إلى قسمين: كبرى وصغرى، فالكبرى أن تقرب الفتحة من الكسرة والألف من الياء من غير قلب خالص ولا إشباع مبالغ فيه وهي المحضة، وإذا

أطلقت الإمالة انصرفت إليها وتسمى بالبطح والإضجاع...والصغرى هي ما بين الفتح المتوسط والإمالة المحضة؛ ولهذا يقال لها بين بين وبين اللفظين، أي: لفظ الفتح ولفظ الإمالة وتسمى التقليل[28].

وتعد الإمالة ظاهرة صوتية في القراءات القرآنية، والقراء العشرة فيها أقسام: منهم من لم يمل شيئا، وهو ابن كثير، ومنهم من يميل وهم قسمان: مقل: وهم قالون، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب، ومكثر: وهم الباقون، وأصل حمزة، والكسائي، وخلف الإمالة الكبرى، وورش الصغرى، وأبو عمرو متردد بينهما[29].

وتشيع الأحكام الثلاثة: الفتح والتقليل والإمالة في العامية الجزائرية، وإذا ما رمنا تتبع أسباب الإمالة في ألسن المتكلمين بالعامية الجزائرية ـ وذلك باعتماد المنهج الوصفي الذي يلاحظ الواقع اللغوي كما هو ـ فإننا سنجد طرفا منها موافق لما نص عليه القراء من مسوغات الإمالة في القراءات القرآنية مع التوسع في استعمالها، أي: أنها لا تأخذ شكل القاعدة المطردة ويمكن تسمية ذلك بما يجوز لغة ولا يجوز قراءة.

وليس في الكتابة العربية ما يمثل الإمالة ويوضحها رسما؛ لأنها متعلقة بالجانب الصوتي فقط، ويمكننا القول إن الإمالة في العامية الجزائرية تشيع ـ كثرة ـ في البدو دون الحضر، وذلك لأن البدوي يميل إلى تحقيق ما سماه ابن جني الانسجام الصوتي بين الصوائت، فقد قال: "معنى الإمالة أن تنحو بالفتحة إلى الكسرة، فتميل الألف نحو الياء؛ لضرب من تجانس الصوت، وذلك قولك في عَالِم: عِالِم، وفي سَالِم: سِالِم، وفي رَمَى: رِمِى"[30]، ومثله في العامية الجزائرية قول: (لْبِيت) لكلمة (البيت) و(الزِّيتون) لكلمة (الزَّيتون) بكسر الباء والزاي في العامية بدل فتحهما في الفصحى، وقد حصلت الإمالة في المثالين لمجاورة الفتح حرف الياء الذي يعد من أسباب الإمالة من باب إتباع الحركة لما يجاورها طلبا للمناسبة، أي: أن الإمالة كانت لسبب موجود في اللفظ، تمثل في الياء، والياء بنت الكسرة كما يقال.

وقد نلحظ ما سماه القراء بظاهرة التقليل في مفردات العامية لدى بعض الجهات في الجزائر ـ ويكاد يكون الأغلب على لسانهم ـ ففي ولايات الوسط مثلا تنطق كلمات: (الخزانة) (لخزانة) بتقليل الزاي ومدها والنون، و(الخيمة) (لخيمة) بتقليل الميم، وقد نقل عن الكسائي إمالة ما قبل هاء التأنيث في الوقف فقال الشاطبي:

وفي هاء تأنيث الوقوف وقبلها ممال الكسائي غير عشر ليعدلا[31]

وتميل العامية الجزائرية وفق قواعد الإمالة في أصول القراءات القرآنية؛ فتقلل مثلا ذوات الياء وهي الكلمات التي انقلبت ألفها إلى ياء مثل: دنيا، وسلمى، وحلوى...

ويشيع الفتح بكثرة في مناطق الغرب الجزائري، ويقل التقليل والإمالة في مفردات عاميتهم، ويعلل ابن الجزري سبب كل من الفتح والإمالة، فأرجع الإمالة إلى مراعاة لسهولة اللفظ، وذلك أن اللسان يرتفع بالفتح، وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع؛ فلهذا أمال من أمال، وأما من فتح فإنه راعى كون الفتح أمتن، أو الأصل[32].

ـ الوقف على أواخر الكلم:

من أهم القواعد اللغوية التي تختص بالكلام العربي قاعدة "أن العرب لا تبدأ بساكن ولا تقف على متحرك"، أي: أن المتكلم مجبر على قطع نفسه عند آخر كلمة من جملته التي ينطق بها، فيكون مقيدا بقاعدة تحدد كيفية وقفه على آخر حرف من آخر كلمة، وقد جعل القراء لهذا الباب أصولا في قراءاتهم، فقد قال ابن الجزري في الطيبة:

والأصل في الوقف السكون ولهم في الرفع والضم أشمن ورم

وامنعهما في النصب والفتح بلى في الجر والكسر يرام مسجلا[33].

أي: أن للوقف في كلام العرب أوجها متعددة، والمستعمل منها عند أئمة القراءة تسعة وهو: السكون، والروم، والإشمام، والإبدال، والنقل، والإدغام، والحذف، والإثبات، والإلحاق[34]، وتقتصر العامية الجزائرية من كل هذه الأوجه على السكون فقط وهو عبارة عن تفريغ الحرف من الحركات الثلاث، وذلك لغة أكثر العرب، وهو اختيار جماعة من النحاة وكثير من القراء[35].

وقد درجت العامية الجزائرية على أن لا تعرِب الحرف الأخير لمفرداتها وهو من أهم خصائص الفصحى وميزاتها، بل تجنح إلى السكون المحض ـ وصلا ووقفا ـ خلافا للقاعدة النحوية، فإننا نجد كلمات العامية الجزائرية تبتدئ بساكن وتنتهي به مثل قولهم: (كْبيرْ) بدلا من (كَبير)، والحركات الإعرابية لا توظف في العامية مثل قولهم: (خالدْ سافرْ)، و(غلقتْ لبابْ)، وذلك كله بحثا عن الاقتصاد اللغوي، وهذا الاقتصاد الذي يمثل سنة من سنن تطور اللغات جميعا، فهو مسار التحرر التدريجي من الخريطة المعقدة لترتيب عناصر الجملة وحالات الإعراب

ومورفيماته الأصلية والفرعية، وذلك نتيجة للاستعمال الطويل لكافة الترتيبات الممكنة رياضيا[36].

وشذت بعض الكلمات في العامية الجزائرية؛ إذ لم يعتريها السكون في آخرها مثل قولهم: (جبتْ لما ليَّ)، و(سْمحتْ فيَّ)، و(كانْ عليَّ) بفتح ياء الإضافة في الأمثلة كلها، والإسكان جائز في لغة العرب غير أن الفتح أجود[37]، وحركت بالفتحة دون الضمة والكسرة هو لخفتها[38]، ولعل اختيار العامية الجزائرية الفتح في هذه الكلمات خصوصا هو أنها تشترك في كونها قليلة الحروف؛ فأرادات العامية تقويتها بالتحريك، أو أنها فرت من أصلها الفصيح الذي يقتضي التسكين غالبا.

خاتمة:

من خلال ما سبق عرضه يتضح لنا أن العامية الجزائرية ليست إلا وجها من أوجه العربية الفصحى ـ التي يعد القرآن الكريم بقراءاته المتواترة وأصولها أحد مصادرها الرئيسة وأهمها ـ مستندة إليها ومبنية عليها، وللغة العربية مكانتها في حياة الأمة الإسلامية على مر العصور؛ حيث إنها لغة القرآن الكريم الذي يتلوه جميع المسلمين، إلا أن العامية محرفة عن قواعد الفصحى قليلاً أو كثيرًا، وإذا كانت الفصحى تقبل كسر القواعد لصالح الإيقاع والانسياب، فإن العامية الجزائرية هي الأخرى قد نحت هذا النحو وسلكته، وذلك على حسب ما ألفته ألسن الناس ودرج عليه نطقهم درءا للاستثقال ونفورا منه، واعتدادا بخفة اللفظ وسهولته بالنظر إلى موقعهما في نفس المتكلم، وأن ما جاوز تلك الأوجه والأصول من مفردات العامية ـ باستثناء الدخيل من اللغات الأجنبية ـ إنما مرده إلى التوسع والتحرر من مجال قيود الفصيح من الكلام، ويعد هذا من قبيل تطور اللغة صوتيا وصرفيا في نطق العامية الجزائرية.

الإحالات:

(1) ينظر: النيرباني عبد البديع، الجوانب الصوتية في كتب الاحتجاج للقراءات، دار الغوثاني، دمشق، ط1، 2006م، ص: 5.

(2) ينظر: ابن جني عثمان أبو الفتح، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج: 1،ص: 383

(3) ينظر: الزرقاني محمد عبدالعظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، مكتبة الفكر، لبنان، ط1، 1996م، ج:1، ص117.

(4) ينظر: أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المطبعة العربية، الجزائر، ص: 142 ـ 143.

(5) أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص 143.

(6) محمد بن محمد بن يوسف شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، منجد المقرئين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1999م، ص: 9.

(7) أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، المدينة المنورة، ج: 1، ص: 355.

(8) ينظر: علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة العربية، دار النهضة للطباعة، القاهرة، ط7، 1972م، ص: 153 ـ 154.

(9) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة، ج: 2، ص: 629.

(10) أبو القاسم محمد بن محمد محب الدين النويري، شرح طيبة النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1424هـ ـ 2003م، ج: 1 ص: 317، و324.

(11) ينظر: عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي، الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع، مكتبة السوادي، ط: 4، 1412هـ ـ 1992م، ص: 53.

(12) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(13) ينظر: أبو القاسم النويري، شرح طيبة النشر: ج: 1، ص: 350.

(14) ينظر: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، ج: 1، ص: 197، (بتصرف).

(15) ينظر: أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، 1983م، ج: 2، ص: 297.

(16) إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط8، 1992م، ص: 71.

(17) ينظر: سمر روحي الفيصل، المشكلة اللغوية، ص: 10، و11، نقلا عن كتاب: الدلالة الصوتية والصرفية في لهجة الإقليم الشمالي، عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء، عمان، ط: 1، 1997م.

(18) ينظر: عثمان بن قنبر أبو بشر سيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الرفاعي، الرياض، ط: 2، 1982م، ج: 4، ص: 433 و434.

(19) ينظر: عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي أبو عمرو بن العلاء، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 1، 1987م، ص: 230.

(20) عبد الله بن عبد المؤمن بن الوجيه بن عبد الله بن على ابن المبارك التّاجر الواسطيّ المقرئ تاج الدين، الكنز في القراءات العشر، تح: خالد المشهداني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط: 01، 1425هـ - 2004م، ج: 1، ص: 225.

(21) عثمان بن سعيد الداني الأندلسي، التحديد في الإتقان والتجويد، تح: غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، ط: 1، 2000م، ص: 70.

(22) قاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي، منظومة حرز الأماني ووجه التهاني، تح: علي بن سعد الغامدي المكي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط: 1، 2016م، ص: 18.

(23) محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف ابن الجزري الدمشقي، منظومة طيبة النشر في القراءات العشر، تح: أيمن رشدي سويد، مكتبة ابن الجزري، دمشق، ط: 1، 2012م، ص: 25.

(24) قاسم بن فيره الشاطبي، منظومة حرز الأماني ووجه التهاني، ص:20.

(25) المصدر نفسه، ص: 17.

(26) المصدر نفسه، ص: 19.

(27) ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، مادة (ميل) ج: 11، ص: 636.

(28) الشيخ سيدي إبراهيم المارغني، النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مقرإ الإمام نافع، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ص: 90.

(29) أبو القاسم النويري، شرح طيبة النشر: ج: 1، ص:565.

(30) أبو الفتح عثمان بن جني، اللمع في العربية، تح: سميح أبو مغلي، دار مجدلاوي للنشر، عمان، 1988م، ص: 156.

(31) قاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي، منظومة حرز الأماني ووجه التهاني، ص: 28 .

(32) محمد بن محمد بن يوسف شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، تح: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 02، 2002م، ج: 2، ص: 28.

(33) ابن الجزري، طيبة النشر في القراءات العشر: 36.

(34) محمد بن محمد بن يوسف شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج: 2، ص: 89، و90.

(35) المصدر نفسه، ص: 90.

(36) خليل كلفت، الازدواج فى اللغة العربية بين الفصحى والعامية، مجلة الحوار المتمدن، العدد: 3712 - 29/4/2012 - 20:33، المحور: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات.

(37) أبو علي الحسن بن محمد بن إبراهيم البغدادي المالكي، الروضة في القراءات الإحدى عشرة، تح: نبيل بن محمد إبراهيم آل إسماعيل، رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1415هـ، ج: 1، ص: 654..

(38) المصدر نفسه: ص: 652.